آثار أهملتها ذاكرة التاريخ

الأستاذ محمد الصوفي

مقدمة: جامع وضريح عمرو بن معدي كرب الزبيدي في مدينة حمص، وهي ثالث المدن السورية من حيث الأهمية الاقتصادية والإدارية وعدد السكان، تقع وسط غربي البلاد على امتداد المدن السورية في السهول الوسطى الممتدة من الشمال إلى الجنوب، التي تضم المدن التالية: (حلب - حماة- حمص -دمشق -درعا).

يخترق نهر العاصي سهول سورية الوسطى، ويعتبر الشريان الرئيس للحياة الاقتصادية لهذه المناطق، ويمر النهر غربي مدينة حمص على بعد حوالي كيلو مترين تقريباً، محاذياً السهل الغربي للمدينة الذي يبدأ من منطقة القصير جنوباً حتى سهل الغاب شمالاً، وإلى جبال لبنان الشرقية غرباً، ويتفرع من نهر العاصي عند بحيرة قطينة ساقية للري تسمى" المجاهدية" تسير بمحاذاة الضفة الشرقية للعاصي حتى مدينة حماة، فنروي الحقول والبساتين التي تمر فيها، وتخترق مدينة حمص من طرفها الغربي فتزودها بالمياه اللازمة، والساقية المجاهدية شقها الملك المجاهد شيركوه الثاني في عام 581هـ لتزويد المدينة وحماماتها وجوامعها بالمياه، وسميت باسمه. وقد أجريت عدة

تحسينات عليها حتى أصبحت في وضعها الحالي.

وكان للسهل الغربي لمدينة حمص أهمية استراتيجية وعسكرية هامة، حيث شهد منذ القديم صراعاً خطيراً على النفوذ بين الحيثيين والمصريين، ثم الرومان وفارس، وتدمر، وقد استخدمته الجيوش لتحمي ظهرها، وللحصول على المياه اللازمة.

بابا عمرو: إحدى قرى مدينة حمص، تقع في جنوب غربي المدينة على بعد خمسة كيلو مترات، وقد شملها التنظيم والتوسع العمراني فأصبحت حياً من أحياء المدينة، يقع بقربها تل مشهور يسمى (تل بابا عمرو) على طريق بحيرة قطينة فمنطقة القصير إلى الجنوب، وتدل أبنية بابا عمرو وحجارتها المنحوتة وآثارها المدفونة على أنها تعود إلى العهد الروماني على أقل تقدير، فقد كشفت عمليات حفر أساسات الأبنية عن أبنية قديمة، وأقنية وسراديب ودياميس[1]، كما وجد الناس في الحي القديم بعض الألواح الحجرية المنقوشة مكتوبة بلغة يونانية قديمة أو غيرها؛ لم يعتنِ بحفظها أحد ولم يتعرض لفك رموزها خبير فضاعت مع الزمن مع بعض الأجران الحجرية وغيرها. وفيها أثر تاريخي كبير هو جامع بابا عمرو- موضوع البحث- حيث يضم ضريح الفارس الشاعر العظيم عمرو بن معد يكرب الزبيدي، كما يؤكد عامة الناس في باب عمرو. من أين

---

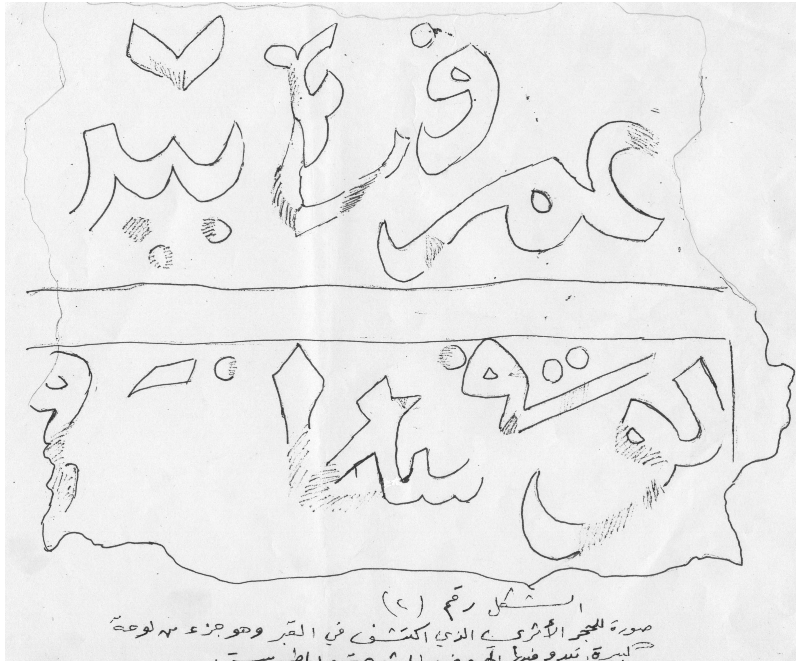
[1] - انظر (ربوع محافظة حمص) للدكتور عماد الدين موصلي باب الآثار الرومانية في حمص، حيث يقول:" دل التنقيب على أن هذه المغائر أغلبها أقبية بيوت قديمة، أو مدافن مسيحية بيزنطية محفورة في الصخر عرفت في روما منذ القرن الميلادي الأول وفي حمص، وفي القرن الثالث إلى السابع حفرها المسيحيون لدفن موتاهم، وليمارسوا فيها طقوسهم الدينية بعيداً عن رقابة الدولة واضطهادها تسمى الدياميس-ص 134-135.

جاءتهم هذه الفكرة وعششت في أذهانهم؟ لا أحد يعرف تماماً، لكن من المؤكد أنها وليدة مطلع القرن العشرين على أبعد تقدير، أما الجامع فلا تملك ذاكرة المسنين عنه أية فكرة؛ سوى أنه موجود. ويحكي لنا بعض المسنين -شاهدي العصر -أن حقيقة الضريح أثارت جدلاً وأخذاً وردّاً بين الناس،فقاموا على إثر ذلك بنبش القبر، وقبل الوصول إلى اللحد وجدوا لوحة صخرية مكتوبة بخط عربي، خط الثلث الحديث يعود إلى أواخر العهد العثماني، وبدت بعض كلماته مطموسة، والواضح منها كلمتا عمرو الزبيدي، وهي جزء من لوحة أكبر مفقودة، أو لم يتم البحث عنها جيداً في القبر، فاعتبروا اللوحة دليلاً قاطعاً على فكرتهم عن صاحب الضريح، وتردّ قول بعضهم بأن الضريح هو لأحد مشايخ التركمان، والمعروف بأن بعض سكان بابا عمرو من التركمان، كسكان مدينة حمص[2] الذين هاجروا من وسط آسيا واستوطنوا منطقة حمص خلال الحروب الصليبية والغزو المغولي، وقد كانت مدينة حمص مركزاً لتجمع وتعبئة العساكر الإسلامية خلال تلك الفترة.

لم تتم عملية النبش للضريح بشكل كامل، ولم تدرس اللوحات وجدران القبر، حيث يؤكد شاهد عيان ما زال حيّاً: أنه رأى كتابات عليها، فبقيت ذاكرة الناس لا تستند إلى أي دليل علمي واضح ومؤكد يؤيد فكرتهم عن صاحب الضريح.

---

[2] -يوميات محمد المكي1135هـ قال ص49وكان في حمص بعض السكان من التركمان ودمشقية وحلبية وحموية..).



صورة للحجر الأثري الذي اكتشف في القبر، وهو جزء من لوحة كبيرة

تبدو فيها الحروف المشوهة والمطموسة.

نلاحظ اضطراباً في ذاكرة العامة والمصادر المكتوبة حديثاً عن بابا عمرو خلال ثلاثمائة عام مضت، فالشيخ عبد الغني النابلسي في كتابة (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام والحجاز)[3] يقول إنه مرَّ على قرية بابا عمرو: وفيها جامع بابا عمرو وضريح الصحابي عمرو بن عبسة))... وفي العام 1130 هـ ومحمد المكي الخانقاه في مذكراته [4] عن الفترة نفسها 1100 هـ-1135م يذكر فيها جامع بابا عمرو في عدة مناسبات يقول: ((الذي فيه ضريح الصحابي عمرو بن أمية))...؟ ومحقق الكتاب عمر نجيب عمر يذكر على هامش الكتاب أنه ضريح عمرو بن

---

[3] -انظر كتاب حمص درة الشام ص35 عن بابا عمرو وضريحها.

[4] -لمزيد من التفصيل انظر كتاب تاريخ حمص يوميات محمد المكي طبع المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق صفحة (91، 151، 185، 244).

أمية الضمري، أما الباحث الفرنسي جان ايف جيلون في كتابه (أعياد الربيع القديمة في حمص)[5] يقول: ((تعود أهمية مسجد بابا عمرو إلى وجود ضريح عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ويعلق: إن تاريخ وفاته مجهول ونجهل أيضاً الأسباب التي دعت الناس إلى الاعتقاد بأن ضريحه هنا فالتراث المحلي لا يخبرنا بشيء حول هذا...)). وتضطرب المعتقدات وتختلف الروايات حول حقيقة صاحب الضريح... فالفارق شاسع بين أحد مشايخ التركمان؛ وبين الصحابة كعمرو بن عبسة وعمرو بن أمية وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وغيرهم من الأسماء التي طرحها بعض المثقفين التاريخيين والتراثيين، كل ما توفر لدينا من حقائق وأدلة تاريخية ومراجع التاريخ والأعلام تنفي بشكل قاطع هذه المعتقدات دون أن تؤكد حقيقة بديلة.

أولاً: الصحابي الفارس الشاعر المشهور عمرو بن معد يكرب الزبيدي[6] من قبيلة زبيد من مذحج اليمنية، أسلم عام 11هـ وارتد ثم عاد فأسلم، وشارك في الفتوحات الإسلامية ببطولة منقطعة النظير، واشتهر بوقائعه وشجاعته وبطولاته الخارقة، وتؤكد المصادر أنه استشهد في معركة نهاوند في فارس،

ودفن في قرية روذة عام 21هـ، ورثته زوجته الجعفية بأبيات مؤثرة:

لقد غادر الركب بروذة شخصاً لا الذين تحملوا ضعيفاً ولا غمرا

[5] -راجع كتاب أعياد الربيع القديمة في حمص تأليف جان أيف جيلون صفحة (52، 53، 54، 60.67).

[6] - لمزيد من التفاصيل عن حياة الصحابي والفارس الشاعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي راجع ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي إصدار مجمع اللغة العربية بدمشق، والمراجع المذكورة في سيرة ابن هشام مجلد4 صفحة175- الأغاني مجلد15 صفحة208 وما بعدها- الاستيعاب.

فقل لزبيد بل فقدتم أبا ثور لمذحج كلها سنانكم عمرا
فإن تجزعوا لا يغني ذلك عنكم ولكن سلوا الرحمن يعقبكم صبرا

وتذكر المصادر روايات أخرى لموته أيضاً، فقيل في معركة القادسية،وقيل في براري العراق من لسعة حية، وقيل عطشاً في الصحراء، وقيل مات بمرض الفالج وهو في طريقه إلى الري في العراق، وقيل شهد صفين ومات في خلافه معاوية.

وتعتبر رواية استشهاده في معركة فتح نهاوند هي أقرب إلى الصحة والأقوى، ولم يرد ذكر سكنه حمص وموته فيها، رغم أنه شارك في فتح حمص كما ذكر الواقدي.

أما عما ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي؛ فقد ظهر مؤخراً ضريح للصحابي الجليل عمرو بن عنبسة في سوق الحسسة وسط المدينة.

إذن نحن نملك مرجعين عن قرية بابا عمرو القديمة؛ وعن الضريح الموجود فيها والجامع القديم. المصدر الأول أقوال وروايات عامة الناس في بابا عمرو؛ وذاكرة المسنين.

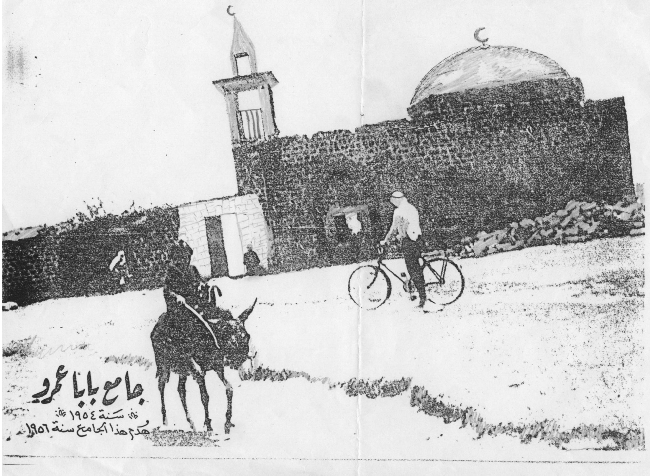
والمصدر الثاني المراجع التاريخية قديمة وحديثة، والوثائق والمخططات الواردة آنفاً، وتضيف الروايات الشعبية الأولى وتقول إن بابا عمرو كانت قديماً تسمى كفردوس وقد سميت بهذا الاسم من حدث تاريخي هام بطله عمرو الزبيدي وهي معركة طاحنة حصلت في المنطقة السهلية غرب المدينة، فأبلى فيها عمرو بلاءً حسناً وقتل الأعداء؛ وجندل الفرسان وشتت شملهم، وهزمهم هزيمة نكراء، وداسهم بحوافر حصانه، فكان أبو عبيدة الجرّاح يهلِّل ويكبّر

ويحمسه ويصرخ: (دوس الكفار يا عمرو دوس)، بارك الله فيك، فسميت القرية في ذلك الوقت (كفردوس).

أما تحول الاسم من كفر دوس إلى بابا عمرو، فله رواية أخرى تقول: إن عمراً سكن (كفردوس) وأصبح شيخاً مسناً مهيب الطلعة، عابداً زاهداً، يعلّم الناس أمور دينهم، فكان يقصده الناس من جميع الأنحاء للسلام والتبرك والتعلم والدعوات، وكانوا يسألون عنه فيقولون: أين بابا عمرو؟ وذهبنا إلى بابا عمرو، وجئنا من بابا عمرو، فذهب عليه الاسم بابا عمرو، وسميت القرية باسمه (بابا عمرو).

***جامع بابا عمرو القديم:**

هذا الجامع من أهم الأوراق التاريخية التي أهملتها ذاكرة الزمن، فذهبت في مهب الريح، امتدت أيادي الغفلة والجهل فطمست معالمه ودفنتها، حينما وصلت إلى الصرح معاول الهدم والتخريب فسوته بالأرض، وجعلته أثراً بعد عين وشيّدت مكانه عام 1956 مسجداً حديثاً من الإسمنت، سمته جامع عمرو بن معد يكرب الزبيدي...

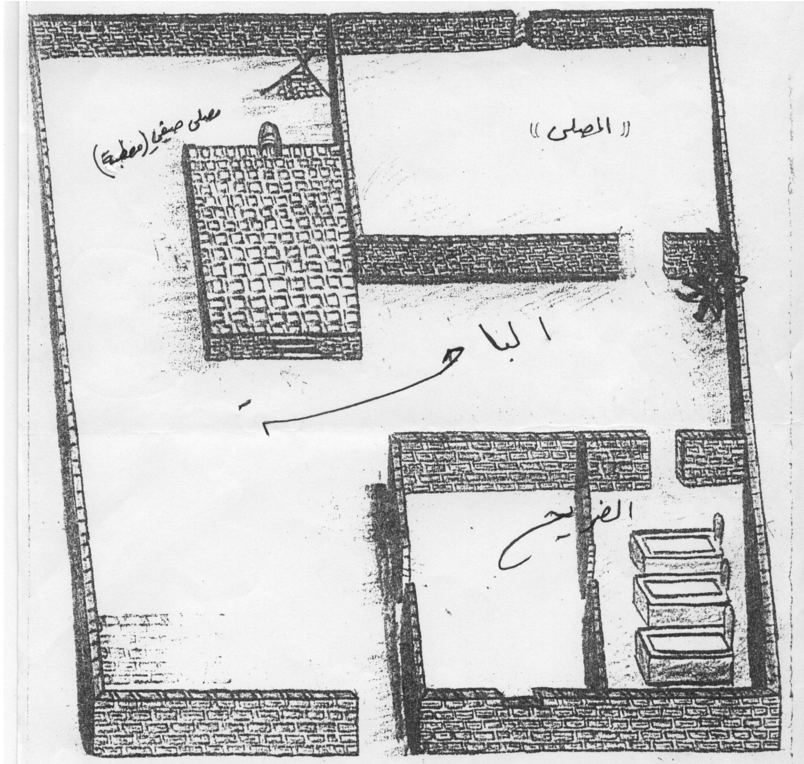


لم نعد نملك توثيقاً له سوى القليل، أهمها ما تحمله ذاكرة الشيوخ والمسنين الذي عاصروه ومازالوا أحياءً حتى الآن،

فأعطوني وصفاً دقيقاً يقارب الحقيقة رسمت بموجبه مخططاً للجامع انظر الشكل (1).

كما وجدت صورة فريدة للجامع التقطها أحد أقاربي قبل عامين من الهدم، أي عام 1954م، انظر الصورة التي تبين الواجهة الشمالية لغرف الضريح مع المدخل الرئيسي والمئذنة، وتبرز فيه البساطة الشديدة للجامع....

بالإضافة إلى ذكر الجامع في مذكرات محمد المكي؛ والشيخ عبد الغني النابلسي البسيطة التي تعود إلى حوالي أربعمائة عام.



الشكل رقم 1

مخطط رأسي لجامع بابا عمرو القديم بحسب الوصف

اكتشفت مخططاً تنظيمياً لقرية بابا عمرو من إصدار قاضي المحكمة العقارية في حمص لعام 1920م، يبين فيه تماماً مخطط الجامع كما ذكره المسنون، مع بعض التعديلات البسيطة.

نستخلص منها المعطيات التالية: بناء الجامع بالحجر الأسود والطين، والجدران السميكة، والنوافذ المنقطرة، والأبواب الحجرية، والقبة الطينية القائمة على الجدران المعقودة من الأرض إلى السقف، وبساطة البناء، وأقسامه تدل على قدمه، وأنه يعود إلى مطلع العهد العثماني في الشام، أو إلى مرحلة سابقة تعود إلى عهد الأسرة الأيوبية، أو أن كل قسم بني في فترة مختلفة، مثل قسم الضريح، وقسم الحرم (المصلى)، فبناء الضريح يعتقد أنه أقدم من بناء الحرم، وبينهما المئذنة شيّدت في بداية الأربعينيات من هذا القرن كما يذكر المسنون.

وربما يعود بناء الحرم إلى فترة حكم السلطان نور الدين والأسرة الأيوبية خلال الأعوام 540-680 هـ، أو حكم أسرة شيركوه الأيوبية.

فقد شهدت حمص في تلك الفترة نهضة عمرانية هامة، وبناء الأبنية الدينية والمساجد والحمّامات.

وقد استمر حكم أسرة شيركوه لحمص ستة وخمسين عاماً شهدت فيه نهضة عمرانية كبيرة، وبناء الأبنية والمساجد والحمّامات، والساقية المجاهدية (شريان حمص الاقتصادي)، التي تمر على بعد أمتار قليلة من جامع بابا عمرو القديم...!!

* وصف الجامع: يتألف الجامع من ثلاثة أقسام هي: الضريح والحرم والباحة. انظر الشكل رقم (1).

- الضريح: هو كتلة بنائية واحدة، مؤلف من غرفتين متجاورتين من الحجر الأسود والطين، وجدران سميكة حوالي المتر، تبدأ من غرب المدخل الرئيسي للجامع قياسها 13-7,5م يفصل بين الغرفتين جدار سميك؛ له باب عرضه 75 سم وارتفاعه110 سم وسمكه 25 سم، للغرفة الأولى شباك في الجدار الشمالي ضمن قنطرة، ولها مدخل حجري في الجدار الشرقي يطل على الباحة يشبه الباب الأول، وباب خشبي صغير في الجدار الجنوبي على الفسحة السماوية فوق سطح الغرفة، وعلى الزاوية الشمالية الشرقية مئذنة بارتفاع مترين ونصف؛ ذات أعمدة ومظلة وهلال. (انظر الصورة المرافقة)، لها درج حجري خارجي على الجدار الشرقي يبدأ من الأرض حتى السطح، وكانت الغرفة الأولى تستخدم قديماً مصلى قبل بناء حرم الجامع (المصلى).

وغربي الغرفة الأولى تقع غرفة الضريح وقياسها 7,5 6,5x كالغرفة الأولى، تضم ثلاثة قبور يعتقد أنها لعمرو الزبيدي وابنه وخادمه، والقول فيهما غير مقطوع، وعلى سطح الغرفة قبة من الطين واللبن على مساحة السطح، وللغرفة باب صغير في الجدار الجنوبي يطل على الفسحة الشمالية وفي الجدار الشمالي طاقة تهوية صغيرة.

القسم الثاني: باحة الجامع وتتألف من قسمين: الأول في جهة الغرب تفصل بين بناء الضريح وبين حرم الجامع، قياسها 5x13 على شكل شبه منحرف، في زاويتها الجنوبية الغربية نخلة معمرة، والثاني باحة كبيرة

في الجهة الشرقية طولها 28 متراً، وعرضها 12 متراً، تبدأ من المدخل الرئيس للجامع حتى الجدار الجنوبي،في وسطها مصطبة، عبارة عن مصلى صيفي مرصوفة بالحجارة السوداء، وفي جهتها الجنوبية نصب حجري يشير إلى القبلة، وفي الزاوية الجنوبية الغربية جبّ عربي عليه زاوية خشبية؛ تدلى منها رافعة وبكرة وحبل ودلو من المطاط لسحب المياه، وفي الجهة الشرقية أشجار معمرة اقتلعتها حديثاً أيدي بعض الجهلة.

أما القسم الثالث فهو(المصلى) ويقع في الجهة الجنوبية الغربية طوله 11 متراً وعرضه 9 أمتار، جدرانه سميكة من الحجر والطين، مقنطرة من الأرض حتى السقف، وعليه قبة كبيرة من الطين واللبن، وبابه على الفسحة الشمالية، وهو باب خشبي عرضه متران، له شباك صغير في الجدار الغربي، ومحراب طيني بسيط في الجدار الجنوبي، ومنبر خشبي متحرك مؤلف من أربع درجات.

في العام 1956 م كانت بابا عمرو قد تغيرت وزاد سكانها، وبنيت فيها أحياء جديدة، ولم يعد حرم الجامع البالغ حوالي مئة متر مربع يتسع للسكان، خاصة في صلاة الجمعة والعيدين، لذلك كان أول ما تبادر إلى ذهن وجهاء القرية بناء جامع أكبر منه، وحالت المشكلات العائلية وقتها دون بناء جامع قرب الجامع القديم، وترك على حاله؛ وتعرقل المشروع فترة من الزمن؛ حتى وجد الجميع أن الحلّ الأفضل هو هدم الجامع القديم؛ وبناء آخر مكانه وتوسيعه على حساب التربة القديمة المجاورة للجامع، والمشهور بين ترب مدينة حمص القديمة، والذين اختلفوا في الحلول اتفقوا على هدم

الجامع، ومع الأسف لم يجد هذا الأثر التاريخي من يدافع عنه ويحفظه، فحمل الجميع معاولهم وراحوا يهدمون بنشاط لمدة أسابيع، وقد شارك في العمل معظم أهالي بابا عمرو، وأصبح هذا الصرح أثراً بعد عين، وكنت في ذلك الحين صغيراً لا أذكر منه سوى ملامح وخيالات ضبابية غير واضحة المعالم، وعندما رأيت الصورة الفوتوغرافية للجامع؛ فجرت في نفسي مشاعر الحزن والأسف والهمة والعزم فأنشأت بعون الله تعالى هذا البحث، لأوثق هذا الصرح القديم حتى لا تذهب آثاره أدراج الرياح بعد أن يموت الكبار، وتموت ذاكرتهم معهم، وأضعه بين أيدي الباحثين والمنقبين عن آثار الحضارة العربية الإسلامية، والله الموفق والمعين لعل أحد يضيف أية معلومة جديدة عن هذا الصرح القديم وعن الصحابي الجليل صاحب المقام. والحمد لله رب العالمين.

***مراجع البحث:**

1- صورة فوتوغرافية للجامع القديم أخذت عام 1954 (الشكل رقم 4).

2-لوحة أثرية تم كشفها في بداية الأربعينيات، أثناء حفر الضريح، وهي محفوظة في الجامع. (الشكل رقم 2).

3- مخطط تنظيمي لقرية بابا عمرو، من إصدار قاضي المحكمة العقارية في حمص عام 1920م (الشكل رقم 3).

4-شهود عيان وذاكرة كبار السن في بابا عمرو. (الشكل رقم 1).

5- مذكرات محمد المكي الخانقاه عن تاريخ حمص من العام 1100 هـ -1135 هـ. إصدار المعهد العلمي الفرنسي في دمشق. حققه الأستاذ

نجيب العمر.
6- الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز- مذكرات الشيخ عبد الغني النابلسي.
7- أعياد الربيع القديمة في حمص، تأليف جان ايف جليون، ترجمة الأستاذ زياد خاشوق.
8- كتاب شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، إصدار مجمع اللغة العربية بدمشق 1405هـ-1985م.
9- حمص درّة مدن الشام، تأليف منذر الحايك وفيصل شيخاني.
10- الموجز في تاريخ حمص وآثارها للأستاذ محمد ماجد الموصلي1984م.
11- ربوع محافظة حمص بين الماضي والحاضر. د.عماد الدين الموصلي.
12- فتوح الشام. الواقدي طبعة أولى 1374هـ-1955م. مصر.
13- السير النبوية لابن هشام. دار الخير-طبعة اولى1400هـ-1990م.
14- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني-طبعة أولى 1328هـ.
15- الاستيعاب في أسماء الأصحاب ليوسف القرطبي طبعة أولى 1328هـ.
16- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعلي بن محمد الجزري.
(كتاب الشعب).